

## رسالة الحبيب إلى الغريب لأبي عصيدة البجائي

- مقارنة جمالية -

Rissalat Al-Gharibila Al-Habib, li Abu Assida Al-Bidjai.

-Aesthetic approach-

خريف شيباني مختارية<sup>1</sup>، العزوني فتيحة<sup>2</sup><sup>1</sup> جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر)، [khriefchibani.mokhtaria@edu.univ-oran1.dz](mailto:khriefchibani.mokhtaria@edu.univ-oran1.dz)<sup>2</sup> جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر)، [lazounif@gmail.com](mailto:lazounif@gmail.com)

تاريخ الاستلام: 2023/01/25 تاريخ القبول: 2023/04/12 تاريخ النشر: 2023/12/10

**ملخص:** "رسالة الغريب إلى الحبيب" رسالة فنية جزائرية تنتمي إلى العهد الحفصي، وهي جامعة لفنون القول، تحوي الأشعار والأخبار والتراجم ومباحث العلوم والمعارف، وإن كان دافعها نفسي، فهي في شكلها العام تنتظم وفق خصائص الرسالة الإخوانية وما تقتضيه من بوح وشوق وعتاب للحبيب المحددة هويته. أقبل عليها أبو عصيدة جاعلا منها جوابا على ابتداء. ووشحها باللفظ المنمق والتأليف المعجب والنظم المحكم. هذه الخصائص أغرتنا بالاقتراب منها وتفعيلها في ضوء تصور نقدي أضاء لنا جوانبها الفنية والجمالية.

**كلمات مفتاحية:** رسالة الحبيب إلى الغريب؛ أبو عصيدة؛ أبو الفضل المشدالي؛ فن الرسالة؛ الجمالية.

**Abstract:** "Rissalat Al-Gharibila Al-Habib" is an Algerian artistic message belonging to the Hafsidi era. It is a collection of the arts of saying, including poems, news, translations, and science and knowledge researches. However, if its motive is psychological, then in its general form it is organized according to the characteristics of the Brotherhood message which requires revelation, longing, and reproaching the lover whose identity is specified. As Abu Assida made it an answer to the beginning. He also nominated it with rhetoric, impressive authorship, and organized poetry. These features tempted us to approach and activate them in the light of a critical perception that highlighted for us its technical and aesthetic aspects.

**Keywords:** :Rissalat Al-Gharibila Al-Habib; Abu Assida; Abu al-Fadl al-Mishdali; Art of Message; aesthetic.

المؤلف المرسل: خريف شيباني مختارية، الإيميل: [khriefchibani.mokhtaria@edu.univ-oran1.dz](mailto:khriefchibani.mokhtaria@edu.univ-oran1.dz)

## 1. مقدمة:

الرسالة ممارسة نصية خطابية لها أهميتها في مجال التواصل بين البشر قديما وحديثا. وتستمد أدبيتها، من تلك الأساليب الجمالية التي تفيض لدى التعبير عن المشاعر والأفكار وتصور ما يختلج في بواطن النفس وأعماقها. وشهدت الرسالة عبر سيرورتها الأدبية تحولات تلاءمت وطبيعة المراحل الحضارية التي أسهمت في تجديد بنية الخطاب التراسلي وتغييره. ولذلك فهي تعدّ إلى جانب الشعر من أهم المصادر التي تعطي صورة واضحة عن الوضع السوسيو ثقافي لفضاء الحياة العربية عبر مراحلها المختلفة، لأنها لا تخرج عن قوانين أنظمة الثقافة وآلياتها.

فن الرسالة بما يحمله من مدلول لغوي فن تعبيرى خاص بامتياز يقترب من الذات ويضئ كوامنها، وهو من جانب آخر يعلن ولاءه لمجموع الأنظمة المؤثرة في زمنية الترسل ومكانيته. وتختص الرسالة بقابليتها الإبداعية لما تؤمنه من حضور للآخر الذي لن تكتمل دائرية الرسالة إلا به. وقد تواصلت الرسالة تمددها واتساعها بعامل النشر فيتلقاها عدد غير محدد من المتلقين، لتندرج إثر ذلك ضمن إرث سردي ثقافي عام، وتتحوّل إلى نص قابل للقراءة المتعددة بحسب حركتها الزمنية، فينتفي المرسل أمام سلطة المرسل إليه المتجدد، ولا يبقى سوى حساسية اللغة التي تؤمن للرسالة حضورها. ويغدو التجلي الثقافي للرسالة كاشفا لمقدرة العصر البلاغية.

ويبدو المنحنى التصاعدي لفنية الرسالة واضحا انطلاقا من رسائل الرسول ﷺ - الخارجة إلى أفق الجماعة، إلى حين ظهور كتاب أنشأوا الرسائل إنشاء وطوروا أساليبها وصنعوا لهم درجة من التقدير قربتهم من الخلفاء وأمرء العصر الأموي. وقد تشكلت زمرة من الرسائل إحداهما نعتت بالإخوانية وهي رسائل شخصية تبادلها الأفراد فيما بينهم، وثانيهما ديوانية اختصت بتجسير الرسائل المتبادلة بين السلاطين والحكام (الخليوي، 2009، صفحة 37).

## 2. الرسالة في الأدب الجزائري القديم

ارتبط ظهور الرسالة بوظيفة الإبلاغ والتواصل، وتطورت بتطور الإنسان والتاريخ، فكتسبت صبغة أدبية متميزة، ومكانة مرموقة في التراث السردي العربي عامة، حتى أضحت "جزءاً من تاريخ الشخصية الأدبية وعتبة من عتبات النصوص وجزءاً من تاريخ العلاقات بين الكتاب لأنها تسرد تفاصيل وقائع الحياة اليومية في مراسلات الأدباء وغيرهم" (صالح، 2011، صفحة 38).

ويتوجه جهدنا في هذا المقام إلى معاينة تاريخية لفن الرسالة الجزائري ونقتصر على الحقبة القديمة منه تبعاً للنموذج المنتخب للمعالجة. الملاحظة الأولى التي ينبغي إثباتها هي توزع الرسائل الجزائرية الفنية القديمة في عدد من الدراسات والمصادر التاريخية، وعليه فالبحث عنها في مضامها يغدو مسألة حتمية لدارس الرسالة. ونسعى من خلال ما سنعرضه إلى التأكيد على جملة المدونات القديمة والحديثة التي ضمت مجموع الرسائل الفنية الجزائرية القديمة. ومقصودنا من وراء ذلك التصدي لأساليب التهميش والإقصاء التي مورست على النثر الجزائري القديم بفتح أفق الباحثين المهتمين بتشكيلاته الفنية.

بدءاً شجع مؤسسوا الدولة الرستمية (160هـ - 299هـ) طلبة العلم فبنوا المدارس وأنشأوا المكتبات ومكنوا اللغة العربية، حتى غدت اللغة الرسمية للدولة الرستمية، فانتعشت الحركة الثقافية وظهر أدباء برعوا في الشعر والنثر. ومع استقرار الدولة الرستمية، حقق فن الرسالة حضوره النوعي والأدبي. وقد جمع لنا صاحب الأزهار الرياضية "سليمان الباروني" العديد من الرسائل الفنية التي كتبت في هذه المرحلة وعنها. ويبدو أن فن الرسالة على هذا العهد في أغلبه مرتبط بحكام الدولة الرستمية أنفسهم مما يعكس "المستوى الثقافي، والطبيعة المذهبية للمرسل إليه، أو المتلقين، والمتلقين هنا تجسدهم الرعية على عهد الرستميين طوراً وولادة هذه الإمارة وقادتها طوراً آخر" (مرتاض، د.ت، صفحة 81). من رواد هذه المرحلة أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وابنه محمد بن أفلح بن عبد الوهاب. وقد استثمر كلاهما فن الرسالة لسيط نفوذهما على الرعية والمعادين للدولة الرستمية.

وإذا انقلبنا إلى عهد الدولة الحمادية (405هـ - 547هـ) نلاحظ اهتمام الحماديين بالأدب والأدباء ومختلف العلوم مما ساعد في تطوير آليات الكتابة. وقد خص كل من الأصفهاني وابن الأثير بذكر نماذج

تراسلية عن هذه المرحلة من عمر الجزائر(رزاق، 2007، صفحة 179). كما نعر في مصنف: " رابح بونار" المغرب العربي تاريخه وثقافته"(بونار، 1981، صفحة 303)، على رسالة لابن الريب الملقب ب: "القاضي التهرتي" بعث بها إلى "أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم" أحد أدباء الأندلس .

وبولوجنا إلى عهد الدولة الزيانية نجد أبا حمو موسى الثاني (723هـ-790هـ) وهو القائم على شؤون الدولة حينئذ يصيغ شروطا ومعايير لتدبير الرسائل تختص بحفظ القرآن والحديث والإمام بالسير ومعرفة الأخبار والإحاطة بعلوم البلاغة واللسان(فيلاي، 2002، صفحة 457). وتعد رسائل ابن خميس مرآة عكست حجم الصراعات الفكرية بين الفقهاء الفلاسفة والمتصوفة(توات، 2012، صفحة 254).

ومنه يستوقفنا فن الرسالة الجزائري على العهد العثماني حيث نعر على نماذج متعددة متفرقة في عدد لأبأس به من المصادر والمصنفات، من ذلك الرسائل المدرجة في كتاب أبي القاسم سعد الله في مؤلفه: "تجارب في الرحلة والأدب"، وما نشره أبو العباس المقري من رسائل فنية في مصنفه: "رحلة المقري إلى المغرب والمشرق"، و"نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب". وقد كانت "الرحلة ابن حمادوش الجزائري" نصيب في الحفاظ على عدد من الرسائل الهامة من تراث الجزائر على عهد الدولة العثمانية. الأمر نفسه نجده في مصنف: "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"لصاحبه: أحمد بن سحنون الراشدي. كما استحوذ كتاب: "نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (1500م-1830م) لصاحبه: جمال قنان على عدد من الرسائل الجزائرية منسوبة إلى هذا العهد. كما احتوى مصنف أحمد أبا الصافي جعفري الموسوم: "الحركة الأدبية في أقاليم توات من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري"، ج2، على أزيد من تسع رسائل إخوانية، وبدوره عبد الحميد زوزو انشغل بالبحث عن الرسائل القديمة الجزائرية وضمها لمصنفه: "نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر (1830م-1900م)".

إن المتمعن في الرسائل الفنية الجزائرية القديمة سيقف على ارتباطها المباشر بواقعيتها التاريخية وتشابكها مع أصولها ومرجعياتها على اختلاف مشاربها، وبناء على ذلك يغدو النص التراسلي مُنتجاً ثقافياً يتكتم على العديد من البنى التي أسهمت في إنتاجه. ذلك أن "العلاقات الرسائلية ليست علاقات أدبية، فحسب بل هي علاقات تبادل معرفي وتعدد ثقافي في شتى مجالات الحياة الفردية والجماعية"(صالح،

2011، صفحة 32)، وما ميزها هو حضورها القوي في الحياة الفكرية والسياسية في مختلف المراحل، ففن الرسالة اعتبر أحد أهم القنوات التواصلية والتأثيرية والجمالية بين خواص الناس وعوامهم، كما تعددت أساليبها بتعدد كتابها وموضوعاتها.

بعد هذا العرض الاستكشافي المقتضب عن تاريخية فن الرسالة الجزائري القديم نحول اشتغالنا نحو مجال المعايينة النقدية، حيث سيكون من الضروري بالنسبة للدراسة النقدية أن تحدد مسعاها وهي تسعى لاستكشاف إمكانية الوعي بطبيعة العلاقة بين النصوص الرسائلية وسياقات إنتاجها وإدراك ما تنتظم فيها من أنساق. وتأسيسا على ذلك سيكون أمودجنا المنتخب للمعالجة هو "رسالة الغريب إلى الحبيب" لأبي عصيدة البجائي. وقد حقق أبو القاسم سعد الله للرسالة حضورها النصي بعد أن كانت مخطوطا غفلا خارج نظم تداول السياقات الثقافية، فأخرجها مما هو شخصي ذاتي إلى ما هو عام متاح لجميع المتلقين. نشير إلى أن اعتمادنا مبدئيا سيكون على المقدمة التي قدّم بها سعد الله لتحقيق الرسالة نظرا لغناها المعرفي، رغم اعتراف صاحبها بشحّ المعلومات الخاصة بكتاب الرسالة. إضافة إلى مرجع مهم آخر للباحث نفسه والموسوم: "آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر"، في جزئه الرابع. وعليه حرّينا الانطلاق من سيرتي أبي عصيدة البجائي بوصفه مرسلًا وأبي الفضل المشدالي بوصفه مرسلًا إليه. ثم يستوقفنا البحث عند مقولات الرسالة وصوغها الجمالي وأدائها النصي باعتبارها -عبر تجليها الثقافي- تمثل أمودجا أدبيا يكشف على نحو صريح قدرة عصره البلاغية.

### 3. سيرة أبي عصيدة البجائي

يعترف محقق الرسالة أبو القاسم سعد الله بتعذر حصول الباحث على ما يروي ضمأه بخصوص سيرة كاتب الرسالة، إذ كللت جهوده بالفشل ولم يعثر على ترجمة شافية وافية لأحمد أبي عصيدة في كتب التراجم التي تعنى بالأعلام، إلا ما ورد في رسالته من مؤشرات تاريخية تنبئ أن الرجل عاش في القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي، وهو من مواليد مدينة بجاية (الله، 1990، صفحة 18). وبحسب تقدير الدكتور سعد الله أن كاتبنا "ولد في العشرية الثالثة من القرن التاسع" (البجائي، 1993، صفحة 18)، تعلم في بجاية على يد شيوخ من عائلة المشدالي ومنهم محمد المشدالي مفتي بجاية وعلمها

ووالد صديقه أبي الفضل، "عايش صديقه أبا الفضل في بجاية أيام الطّلب أي قبل (840 هـ)" (البجائي، 1993، صفحة 19)، أي زمن العهد الحفصي. ويقصد بالجزائر الحفصية الإقليم الغربي للدولة الحفصية أو ما يعرف حاليا بمدن الشرق الجزائري الخاضعة لسلطة الحفصيين في تونس. وهذه التبعية كانت بين تاريخي: (7هـ\_10هـ). وقد شهد هذا العهد اضطرابات سياسية نتيجة الفتن الداخلية وصراع الأمراء على السلطة. عاش أبو عصيدة تحديدا أيام تولي أبو عمرو عثمان بن مُجّد المنصور بن عبد العزيز (821هـ-893هـ). وهي الفترة التي يرحح أن يكون كاتبنا ألف فيها مصنفه. هاجر إلى تونس ثمّ المشرق العربيّ مبكرا(الله، 1990، صفحة 212)، التقى بصديقه أبا الفضل المشدالي في مصر وجالسه مدّة نجهل تحديدها الزمني بسبب شحّ المعطيات التاريخية عن حياة أبي عصيدة. من مصر توجه كاتبنا إلى الحجاز في رحلته الأولى إليه، ثمّ رجع إلى تونس سائلا عن أهله وأصدقائه في بجاية فلم يجبه أحد، وتبين له أن الديار تغيرت ومعظم أحبائه غادروا الحياة، فضاقت نفسه ولم يواصل السّير نحو بجاية، بل رجع إلى الحجاز عبر مصر وجاور المدينة المنورة(الله، 1990، صفحة 20). وهناك التقى بعدد من الشيوخ منهم: أبو الفتح بن علي بن إسماعيل الأزهري المصري، وهو عالم لغويّ وفقهه شافعي كان مدرّسا بالحرم النبويّ الشّريف. وكذلك الشّيخ أحمد الليدي وفخر الدّين عثمان الطّرابلسي الشّامي(الله، 1990، صفحة 215).

يخبرنا أبو القاسم سعد الله في مقدمة الرسالة البجائية التي حققها واعتمادا على ما ضمه المخطوط من بيانات أن لأبي عصيدة -فضلا عن الرسالة التي نخضعها للمعالجة في هذا المقال- مؤلف آخر موسوم: "أنس الغريب وروض الأديب" وهو كتاب مفقود، لكن جاء وصفه ضمن مخطوط الرسالة البجائية عنونا وموضوعا. يكون قد ألفه أبو عصيدة أثناء مجاورته الثّانية للحرم النبويّ. وبحسب المؤشرات المثبتة في الرسالة بخصوص هذا الكتاب فقد خصص مقدمته "للحديث عن أخبار صديقه المشدالي، وعن رحلته، أمّا أبوابه وفصوله فهي ذكر التّبتل في العبادات وأسرار الطّاعات"(الله، 1990، صفحة 104). كما تضمّن هذا المصنف مناقب شيوخ التّصوّف وآدابهم وعقائدهم، وقد عدّد التّأليف الصّوفيّة التي نقل منها(الله، 1990، صفحة 78).

ومما رحجه أبو القاسم سعد الله أن يكون كتاب: "تعليقة سنّية في حلّ الأجروميّة" لأبي عصيدة، مستندا في ذلك على ذكر محمّد المنوي له في فهرس المكتبة الناصريّة بتمغروث، وهي مكتبة عامة تابعة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، أنشئت حوالي عام: (1408م)، تحت رقم: (1722) ضمن مجموع رقم: (ج)1985 وهو في هذا المصدر أحمد البجائي أبو عصيدة (البجائي، 1993، صفحة 21).

#### 4. سيرة أبي الفضل المشدالي (المرسّل إليه)

ترجم لأبي الفضل المشدالي كل من السخاوي في "الضوء اللامع" (السخاوي، 1964، صفحة 180 و18)، وجلال الدين السيوطي في "نظم العقيان في أعيان الأعيان" (السيوطي، 1927، صفحة 160). وقد استند سعد الله على كلا الترحمتين في التعريف بالمتلق الأول لرسالة أبي عصيدة. فالمشدالي هو أبو الفضل، محمّد بن محمّد بن أبي القاسم بن محمّد بن عبد الله الصّمّد بن حسن بن المحسن المشدالي البجائي البخاري المالكي، من منطقة مشدالة التي تنتمي إلى قبائل زواوة.

بدأ حفظ القرآن الكريم في سنّ الخامسة، وانتهى من حفظه بعد سنتين. تعلّم العربيّة على يد والده الورع الزاهد مُحمّد المشدالي (ت: 866هـ). ثمّ انتقل إلى حفظ المتون والدّواوين "وحفظ الشاطبتين ورجز الغاري في الرّسم والكافيّة الشّاقية ولاميّة الأفعال لابن مالك في التّحو والصّرف... وأرجوزة التلمساني في الفرائض ونحو ربع من مدوّنة سحنون وطوالع الأنوار في أصول الدّين للبيضاوي وابن الحاجب الأصلي وتلخيص المفتاح والديوان لامرئ القيس وللنابغة الذّبياني ولزهير بن أبي سلمى ولعلقمة الفحل ولطرفة بن العبد" (السخاوي، 1964، صفحة 180). وبعدها "توجه إلى تلمسان للاستزادة من العلم وقضى بها أربع سنوات ثمّ رجع إلى بجاية سنة (844هـ) فتصدى بها للتدريس ثمّ دخل عناية وقسنطينة وتونس أواسط (845هـ)" (البجائي، 1993، صفحة 31). ثمّ ارتحل إلى طرابلس قاصدا مصر ثمّ زار بلاد الشام ودخل القدس حوالي سنة: (847هـ) حيث أمّ إليه العلماء وأفادوا من علمه. قصد بيت الحرام لأداء فريضة الحج ومنه قصد مصر ثانية فاستقر به المقام فيها. درّس في الأزهر الشريف الفقه المالكي. وشهد له كل من حضر مجلسه بسعة علمه وغازة حفظه. وقد حضر السخاوي بعض دروسه في سنة (852هـ).

ومن تلاميذ المشدالي كمال بن الهمام (ت: 861هـ)، كما أعجب به الشهاب الأيذي (ت: 860هـ) وكتب إلى والد المشدالي يعرفه مكانة ولده بالمشرق، إذ صرّح: "دانت له المملكة المصرية والأقطار الشامية والبلاد القاصية والدانية، فحاز الرياستين وقام بالوظيفتين" (البجائي، 1993، صفحة 32 و33).

توفي المشدالي في عنتاب (عين تاب) سنة: (864هـ) بين حلب وأنطاكية وهو في الأربعينيات من عمره. وقد قال فيه الإمام جلال الدين السيوطي: "اتسعت معارفه وبرز على أقرانه بل وعلى مشايخه، وشاع ذكره وملاً اسمه الأسماع... وكان أعجوبة الزمان في الحفظ والفهم والذكاء وتوقد الذهن" (السيوطي، 1927، صفحة 160).

### 5. مخطوط الرسالة

يتواجد مخطوط الرسالة بمكتبة جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية (قسم يهودا رقم: 1195). ويخبرنا أبو القاسم سعد الله أنه حصل على نسخة شريطية ميكرو فيلم سنة: (1978م). ويقع المخطوط في خمس وسبعين 75 ورقة. يضم المخطوط ورقة غير مرقمة ترتبها بين صفحتي: (7 و8). عدد الأسطر في كل صفحة ثماني عشرة صفحة. كُتِبَ المخطوط بخط مغربي. ويشير المحقق أن صفحة العنوان كتبت بخط مختلف، وقد كتب على المخطوط أنه هدية من روبرت قاريت " **Robert garrett**" (البجائي، 1993، صفحة 16). ويقول أحد طلبة سعد الله أن أستاذهم حدثهم عن المخطوط الذي استولى عليه اليهود من الجزائر وبيع في مدينة نيوجرزي الأمريكية. فلحق به المحقق هناك وتطلبت عملية التحقيق منه جهد عشر سنوات (الله، **messaed**، 2013).

كان المخطوط بحوزة شخصين هما: مُجَّد بن مصطفى بن الشيخ بن أحمد مالك، أما المالك الثاني للمخطوط هو المكّي بن عزوز (ت: 1334هـ). وقد ذكر أبو القاسم سعد الله أن اسم عنوان المخطوط هو "رسالة الغريب إلى الحبيب". والمؤلف حُدِّدَ بـ: "الشيخ أحمد بن أحمد البجائي المنشأ والدار، ومجاور الحرم النبوي. وأن المؤلف كتب بها إلى أبي عبد الله مُجَّد المشدالي" (البجائي، 1993، صفحة 16).



وقد حقق أبو القاسم سعد الله المخطوط وأخرجه إلى الوجود سنة 1993 في طبعته الأولى عن دار الغرب الإسلامي ب: بيروت - لبنان محققا ومعلقا وملخصا. وكتب للرسالة مقدمة شافية ووافية توزعت على ما يقارب ست وثلاثين صفحة عرض فيها للعديد من المسائل التي تخص الملابس الخارجية التي أسهمت في كتابتها.

## 6. مقولات الرسالة البجائية

"رسالة الغريب إلى الحبيب" التي بين أيدينا هي جواب من أبي عصيدة البجائي -الذي كان مجاورا لبيت الله الحرام- على الرسالة التي تلقاها من أبي الفضل المشدالي - الذي كان مقيما وقتها في القاهرة- والتي عبر له فيها عن فرحته الغامرة بها، وعاتبه على عدم إجابته على رسائله الكثيرة التي بعث بها إليه. وعلى جفائه له ووصفه لحالته بعد فراقه إياه. الرسالة إذن جوابية متفرعة من الرسالة الأولى حيث يصبح فيها المتلقي باثا والمروي له راويا. ف: الرسالة الجوابية تملك بما تحدده قوانين الترسل أن تغدو رسالة أولى بما تثيره من قضايا تتطلب بدورها رسائل جوابية، وبذلك تملك الفروع أن تتحول بدورها إلى أصول منتجة بما تثيره من موضوعات لم تثر من قبل وبما تتضمن من أسئلة ومواجهات وحجج تظل مفتوحة بانتظار أجوبتها"(عباس، 2010، صفحة 25).

إن الرسالة التي كتبها "أبو عصيدة" رسالة إخوانية أدبية لأنها تراسل بين صديقين هما البجائي وهو المرسل والمشدالي وهو المرسل إليه، وأدبية لأنها تخوض في موضوعات تتعلق بالنفس البشرية، وما علق بها من مشاعر الحب والعتاب والتودد والاعتذار. كما أنها تضم أخبارا هامة عن حياة مُجد المشدالي في المشرق وتأليفه وأشعاره ووظائفه، بالإضافة إلى أخبار بعض الجزائريين والمغاربية في المهجر وأطانهم. واحتوت هذه الرسالة الشعر والنثر المسجع والأخبار والطرائف، حيث نجد صاحبها قد "أكثر فيها السجع والطباق والجناس وكل أنواع المحسنات"(الله أ.، صفحة 79).

وفضلنا حصر مقولات الرسالة مختصرة في نقاط حددناها على النحو التالي:

- افتتحت الرسالة بقصيدة أشاد فيها المرسل بأبي الفضل المشدالي مذكرا إياه بما كان بينهما من ود

وذكريات في بجاية والقاهرة والحجاز.

- جاء استهلال الرسالة نثرا كشف لنا فيه المرسل على أن رسالته هي جواب على خطاب وصله من المشدالي المقيم بالقاهرة أيام تواجده بالمدينة المنورة.
- ذكر المرسل لصديقه رحلته من مصر إلى الحجاز، واصفا حالته بعد فراقهما. مؤكدا وجوب التراسل بينهما.
- تذكير المرسل ومراسله بعدد المراسلات التي كاتبه بها دون أن يتلقى منه ردا. كاشفا لنا عن موضوعات تلك الرسائل وعن أسماء رُسلها (حامليها).
- عتاب المرسل ومراسله المشدالي لعدم رده على رسائله وعلى جفائه له، وأنه أوقعه في حرج مع الناس الذين يعرفون صداقتهما.
- اعتذار المرسل من المشدالي على ما يكون قد فهمه من العبارة المنقولة إليه مع الشيخ التواتي.
- تذكير المرسل للمشدالي بوعدده عند الافتراق بالقاهرة بزيارة الحجاز والإقامة فيه مدة أطول من الزيارة الأولى. وأن أهل المدينة ينتظرونه ويتشوقون لحضور حلقاته العلمية.
- وصف المرسل وضعه النفسي في الحجاز والراحة التي تعثره لدى إقامته بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- رده على مراسلة جاءت من تونس تحثه على الرجوع إلى الوطن والالتحاق بالأهل.
- إخبار المرسل ومراسله أنه رجع من تونس إلى مصر ومنها إلى الحجاز قبل أن يصل إلى بجاية، بسبب أنه سأل عن أهله وشيوخه فأخبر بأنهم ماتوا جميعا.
- حلل المرسل ألفاظ رسالة المشدالي وشرح الأبيات الثلاثة العتابية التي ضمنها المشدالي رسالته، مستشهدا بشعر من إنشائه، ومن إنشاء غيره ليدلل على قوة حفظه.
- وصف أبي عصيدة كتابه "أنس الغريب وروض الحبيب" الذي تضمن أخبار رحلته الثانية للحجاز. وقد جاء هذا في المقدمة. كما أخبرنا أنه قسم كتابه المذكور إلى أبواب وفصول تضمنت مسائل علمية وصوفية وتراجم لبعض العلماء وعلى رأسهم صديقه أبو الفضل المشدالي.
- بيان اختلاف علماء المدينة على ترجمته للمشدالي.

-انتهت الرسالة دون ذكر تاريخ الانتهاء من كتابتها باستثناء ذكر شهر شوال.

## 7. الأبعاد الدلالية لصيغة عنوان الرسالة

العنوان بنية مستقلة ذو علامة تواصلية ما بين النص ومتلقيه وهو يشكل لحظة تأسيس الوعي في ذهن القارئ. والغالب على العنوان أن يكون جامعا مانعا مفصحا عما هو مكون إما في نفس صاحبه أو في طيات النص. واشتغالنا اللغوي على عنوان مدونتنا التراسلية جعلنا نخلص إلى:

يحتمل العنوان أن يكون جملة اسمية على وجهين: أولاهما أن تكون "رسالة الغريب" المبتدأ وشبه الجملة "إلى الحبيب" متعلق به. أما الخبر فمحذوف تقديره: "كائنة". والصيغة المفترضة هي: "رسالة الغريب إلى الحبيب كائنة". ثانيهما "رسالة الغريب" تتخذ موقع الخبر لمبتدأ محذوف تقديره "هذه" لتصبح الصيغة المفترضة: "هذه رسالة الغريب إلى الحبيب".

كما يحتمل العنوان أن يكون جملة فعلية حذف فعلها المقدر بـ: "خذ" أو "احمل" لتصبح الصيغة على نحو: خذ (احمل) رسالة الغريب إلى الحبيب.

على مستوى آخر يبدو التوافق الموسيقي جليا بين المفردتين "الغريب" و"الحبيب". واللذان وردتا على صيغة المبالغة "فَعِيل". بينما جاءت صيغة الرسالة على وزن "فَعَالَة" وهي من أسماء الآلة. وعليه بانسجام الوحدات الثلاثة نلاحظ تلاهما واضحا بتعالق وتواصل "الغريب" و"الحبيب" موسيقيا ودلاليا وفق ما يقتضيه قانون الهجر والفراق بين المتحابين عن طريق الأداة المتمثلة في الرسالة.

يثير عنوان الرسالة متلقيه من حيث تأشير الكاتب على نفسه بتوصيف "الغريب" بينما يصف مراسله بـ: "الحبيب". قد تتأتى هذه الغربة من كونه يعيش بعيدا عن وطنه الأول، فما اضطره للعودة إلى الحجاز بعد أن قطع مسافات طويلة للوصول إلى دياره إلا موت جميع أهله وأحبائه في بحاية، مما يشعر المتلقي بحجم الغربة وفضاعتها واستيلاب ذات الكاتب لدى إحساسها بالانتماء والاتصال مع ما يحيط بها، لكن تأتي مفردة "الحبيب" لخلق نوع من التوازن للنفس المكلمة بالغربة والمنفى في ذاتها وكأنها تتمسك ببصيص تستدل به في ليل بهيم. إلى هذا الحبيب يخرج الغريب مخباته ويرسل هواجسه عبر ملفوظ الرسالة.

وهكذا تتجلى أمامنا قصيدة الإحساس والرغبة الملحة في الانفصال عن هذا اللاتمام من خلال التواصل مع من يحب.

على المستوى النصي لا نكاد نعثر على ما يشعرنا بغربة الكاتب كواقع ملموس، بل على العكس من ذلك إذ أعطانا المرسل صورة تقريرية عن حياته، وكشف عن ذات طموحة تسعى إلى العلم. فقد تتلمذ في مسقط رأسه ببجاية على شيوخ من عائلة المشدالي، وبالأخص على يد والد صديقه المرسل إليه. يبدو أن المرسل شديد التعلق بالعائلة المشدالية بحيث كان والد أبو الفضل المشدالي يرعى أبا عصيدة ويقربه ويقدمه حتى على بعض أقرائه وطلب من ابنه أبي الفضل أن يواصل تلك الرعاية كما بدأها والده. كما خصص رسالته لذكر أشياخه الذين أخذ عنهم، ووصفهم بالعلم والتقى وتعاطي الأدب، وذكر أسماء المتصوفين، معربا عن معارفه، وسعه اطلاعه على رجال التصوف ومناقبهم، وذلك لتشخيص تداعيات معارفه والتي زادها اطلاعه على الكتب حيث جمع بين الدين والأدب والأخبار والتصوف، وكل ذلك يتجلى في ذات متصوفة تتمظهر في تأليفه لكتاب "أنس الغريب وروض الأديب" الذي جعله من أصناف التبتل في العبادات وأسرار الطاعات.

ومن جهة أخرى نجد اطلاع علماء المدينة المنورة بهذا الكتاب والإشادة به يمثل في جملتها وتفصيلها وجهاً آخر من الأوجه التي أبان عليها أبو عصيدة البجائي وعلى حمولته المعرفية العميقة. وكل ذلك مما اختصرناه دلالة كافية على أن الرجل ليس غريبا بل هو مجاور ومستأنس ببيت الله، هارب من الشقاء البدني إلى السعادة الروحية، بحيث أثمر هروبه هذا ذات متصوفة عالمة ملمة بأهم مسائل عصرها محاولة التعويض عن العلاقات الروحية والصلوات الحسية التي فقدها. وعليه نقف على العلاقة الجدلية بين العنوان والنص. ولعل الغربة دفينة في نفس الكاتب لا تتبدى لغيره ولم يتجرأ البوح بها إلا لصديقه واصفا نفسه بالغريب.

### 8. المقاصد الجمالية للرسالة

إن ارتباط العلاقة بين المرسل والمرسل إليه شكل فضاء لانتعاش الأدب العربي شعرا ونثرا، فمثلما تنتظم شعرا في غرضي الغزل والمدح تنتظم موضوعاته نثرا في الشوق والعتاب.

وتندرج رسالة "الغريب إلى الحبيب" ضمن الرسائل الإخوانية التي تحدد طبيعة العلاقة بين المرسل والمرسل إليه. وتتوزع هذه الرسالة إلى وحدات صغرى تتجمع لتلتئم في وحدة كبرى. فهي وإن كان موضوعها العام قائما على مراسلة صديق المرسل بالردّ على مراسلته شوقا أحيانا وعتابا أحيانا أخرى، إلا أن الموضوعات سرعان ما تنفرج عن البؤرة المركزية وتتخذ لها مسارات قد تنفصل عن مركزها كما قد تتقاطع معه.

أبو عصيدة البجائي في رسالته ليس شاعرا فقط. ولا هو ناثر فحسب، إنما مكتوبه يفصح عن انشغالات الكاتب المعرفية والعلمية وعن شبكة العلاقات الغنية التي يعقدها مع العلماء والمتصوفة والأدباء في بقاع مختلفة من بقاع الأرض العربية. وينعكس هذا الثراء المعرفي على إنتاجه التراسلي وحمولته الدينية والبلاغية. وعليه يمتلك أبو عصيدة وجوها معرفية متعددة هي ما يشكل الهوية الثقافية لهذه الذات المبدعة التي جمعت بين المنظوم والمنثور في رسالتها.

ذكرنا أن الشوق والعتاب هما سمة الرسالة الإخوانية المرسولة من أبي عصيدة من بيت الله الحرام إلى أبي الفضل المشدالي المقيم في القاهرة، إذ نجده يقول في مستهل نصّه: "وبعد فهذه رسالة عبد محب شائق غريب، جوابًا عن مشرفة صدرت من مالك ماجد سيد حبيب، كتبها وهو قائم على قدم ولائه، مقيم على ما يجب عليه من رفع دعائه، من حضرة النبي المصطفى - ﷺ - نائبًا عنه في تقبيل الصباط الكرم، كافلة بوصف أحواله الحالي منها والسقيم، صادعة بالثناء الصميم، والشكر الدائم المقيم" (البجائي، 1993، صفحة 43). محركا ذاكرة صديقه صوب الأيام الخوالي، أيام لقاتهما في بجاية والقاهرة قائلًا (البجائي، 1993، صفحة 42):

وأن تذكر أيام به سلفت      لله ما كان أحلاها بمعترف

وأن عبدهم لم ينس عهدهم      وليس ينسى عهدود المحسنين وفي

وما بمكة من أيامه سلفت      كانت من الحسن فوق الوصف إن تصف

بقي الكاتب محافظا على وده بالرغم من بُعد المسافة بينه وبين صديقه، وتشتيت شملهما بالحل والترحال، لكن ما زاده البعد سوى شوقا لحبيبه.

اعتمد صاحب الرسالة في سرده للأخبار على إبراز شخصية المرسل إليه باعتبارها محور الرسالة. غير أن القارئ يلاحظ طغيان ضمير المتكلم على الرسالة به سجل الكاتب حضوراً متجلياً بوصفه كاتباً سارداً وشخصية محورية إلى جانب المرسل إليه. لقد تحدث الكاتب عن نفسه في مفاصل عديدة من الرسالة وأخبر قارئه برحلاته الأولى والثانية وكشف عن أحواله الخاصة في الرحلتين. كما أنه عرفنا بكتابه "أنس الغريب" ووصفه توصيفاً دقيقاً أمكننا من الوقوف على جوانب منه وضمن له الوجود رغم أنه كتاب مفقود.

ضمير الأنا في نص الرسالة لم يختص بشخص الكاتب فقط، إنما أوكّل السارد لنفسه بأن يتحدث على لسان شخصيات أخرى حضرت في الرسالة، حيث أدرج ملفوظات لبعض من عاتبه على حبه الشديد لصديقه المتغافل عليه جاءت على لسان السارد. بل إنه يسرد بلسان الرسالة نفسها، حيث نجده يتخيل محاورة تجمع بين الرسالة المبعوثة والحبيب الذي اشتعلت نار الشوق إليه.

من بين الموضوعات المتفرعة عن الوحدة المركزية للرسالة الإشادة بالعائلة المشدالية وبعلمائها وبدورها الريادي في الجزائر وخارجها حيث سعى الكاتب الترجمة لصديقه وقدمه شاعراً، بل وطلب منه شرح معاني أبياته الشعرية التي تلقاها في رسالته السابقة، يقول: "وما القصد إلاً مطالبته أولاً من شرح معاني شريف تلك الأسرار، وما تيسر لديه من بنيات الأفكار" (البجائي، 1993، صفحة 98)، يُظهر لنا هذا القول أن أبا عصيدة البجائي مرسل الرسالة لا يطلب جواباً عادياً، ولكن يطلب منه توضيح ما جاء في أبياته الثلاثة من معاني احتار معها المرسل، وهذا يكشف عن ذات مثقفة تسعى إلى إثبات الروح الثقافية في مراسلاته. كما يشيد الكاتب بوالد المشدالي معلمه الأول يقول: "عندنا ببلادنا الشيخ الإمام العدل، والد الشيخ المذكور أبي الفضل، ليس بينه وبين غيره مناسبة في سائر العلوم ولا مقارنة" (البجائي، 1993، صفحة 95).

يكشف أبو عصيدة عبقرية المشدالين العلمية وفضلهم في بعث الحركة الثقافية ولعل أهم ميدان برعوا فيه هو "هو ميدان الفقه المالكي والفقه المالكي إذ ذاك كان هو دعامة الثقافة الإسلامية خصوصاً الأندلس والمغرب العربي حيث كان الفقهاء قادة الفكر" (عبدلي، 2011، صفحة 138)، ويعد أهم عالم

اهتم بالفقه المالكي هو ناصر الدين المشدالي الذي أقام مدة في مصر ونقل إلى بجاية، ومنها إلى المغرب العربي الطريقة التي انتصر فيها لأصحابها في ميدان الفقه المالكي. هذه الطريقة "انتهج فيها الفقه المالكي منهجًا جديدًا حيث دخل مقاييس الاختيار والترجيح مقياس جديد هو مقياس الفتوى والعمل" (عبدلي، 2011، صفحة 138)، وهذا ما عززه المرحوم مُجَّد الفاضل ابن عاشور مفتي الديار التونسية لقوله "أن ناصر الدين المشدالي البجائي هو أول من أدخل مختصر ابن الحاجب الفقهي للمغرب ورغَّبهم فيه" (عبدلي، 2011، صفحة 139).

ومن بين تفرعات الرسالة الخوض في الأطرايح السياسية من خلال الكشف عن مشروع أبو عمرو عثمان بن مُجَّد المنصور بن عبد العزيز (821هـ-893هـ) الرائد في النهوض بعاصمة الدولة الحفصية بالجزائر بجاية تحديداً، إذ تخبرنا الرسالة بازدهار هذه الدولة وذلك من خلال بنائه للمدارس والزوايا منها زاوية بسكرة وزاوية التّومي وبنائه للسقاية وأمره بتسخين الماء في زمن الشتاء، كما اهتم بالعلم حيث بنى مكتبة جمع فيها العلوم الشرعية واللغة والطب والتاريخ والحساب وغير ذلك، كما عين قضاة وقوادا ساعدوه على أداء مهمته، بل وأنشد في حاكمه شعرا، في مناسبة دينية في شهر رمضان وهو مقيم بالحرم النبوي(البجائي، 1993، صفحة 67):

ونصرًا وفتحًا واحترماً و رفعة لسلطاننا عثمان مالك أرضنا

بمغربك المأمون ثبتته ربنا وزده بجاه الهاشمي تمكنا

وقائده الأحظي الوجيه الذي سما أبو النصر ظافر بن جا الخير أذعنا

ويبدو تعلق المرسل جلياً بأوطانه واهتمامه بسلطانها فمعظم القصيدة خصصت للسلطان الحفصي والدعاء له، فهذا إن دل فإنه يدل على الحنين إلى الوطن، والشوق إلى العيش الرغيد واسترجاع ذكرى الماضي الجميل.

9. خاتمة:

تعتبر "رسالة الغريب إلى الحبيب" المصدر الرئيسي الوحيد لترجمة علم من أعلام الجزائر (أبو عصيدة البجائي)، الذين لم يرد ذكر سيرتهم في كتب التراجم والسير لسبب أو لآخر. وكذا بيان لمؤلفاته المفقودة إلا ما وصفه بنفسه لها.

- الرسالة مصدر آخر من مصادر ترجمة أبي الفضل المشدالي الذي ذاع صيته في القرن التاسع الهجري، مضافة إلى ترجمتي السخاوي والسيوطي.

- ذكرت الرسالة أهم العلماء الذين عُرفوا في ذلك العصر سواء المغاربة منهم أو الجزائريين.

- تضمنت الرسالة مقتطفات من شعر أبي عصيدة الذي لم يرد في أي مصدر من مصادر الأدب

مما بين براعته في نظم الشعر.

- الرسالة كاشفة لمقدرة عصر الكاتب البلاغية.

-عمومًا لاحظنا أن النص التراسلي الجزائري القديم يتأسس على عصر مؤلفه وعلى الثقافة العربية

الإسلامية عامة، فالنص التراسلي الذي عالجه ترجم الوضع الثقافي بالجزائر لتلك الفترة وذلك بإثبات

عبقرية المشدالين العلمية وفضلهم في بعث الحركة العلمية، كما أن الرسالة البجائية عكست الواقع

السياسي والاجتماعي لتلك الفترة.



## 10. قائمة المراجع:

1. أبو القاسم سعد الله. (1990). *أراء وأبحاث في تاريخ الجزائر* (المجلد ج4). لبنان: دار الغرب الإسلامي، بيروت.
2. أبو عصيدة البجائي. (1993). *رسالة الغريب إلى الحبيب* (المجلد ط1). (أبو القاسم تحقيق: سعد الله، المحرر) لبنان: دار الغرب الإسلامي، بيروت.
3. أبو قاسم سعد الله. *تاريخ الجزائر الثقافي* (المجلد ج1).
4. أحمد بن محمد أبو رزاق. (2007). *الأدب في عصر بني حماد* (المجلد د.ط.). الجزائر: وزارة الثقافة.
5. الإمام السخاوي. (1964). *الضوء اللامع لأهل القرن التاسع* (المجلد د.ط.). مصر: مكتبة القدس، القاهرة.
6. الله، أ. (2013، 1). *messaed*. Récupéré sur ديسمبر (17 موقع مسعد للأخبار، مقال بعنوان: وداعا شيخا وأستاذي أبو القاسم سعد الله. وداعا يامن وجهت بوصلة الهوية الوطنية : <http://www/messaed.com/html>
7. المهدي أبو عبدلي. (2011). *الحياة الفكرية ببجاية في عهد الدولتين الحفصية والتركية وأثرها. منشورات وزارة الشؤون الدينية والثقافية، تلمسان عاصمة الثقافة (مجلد 7)، صفحة ص 138.*
8. بن رمضان صالح. (2011). *المتكلم في المراسلات السردية القديمة* (المجلد ط:1). (ضمن مؤلف جماعي أعمال ندوة: المتكلم في السرد العربي القديم، المحرر) تونس: دار محمد علي للنشر.
9. جلال الدين السيوطي. (1927). *"نظم العقيان في أعيان الأعيان"* (المجلد ج1). (تحقيق، و فليب حتي، المحررون) لبنان: المكتبة العلمية، بيروت.
10. خالد الحليوي. (2009). *الرسائل النثرية الشخصية في العصر العباسي، مجلة دمشق. مج: 25 (ع: 2/1)، صفحة ص 37.*
11. رابح بونار. (1981). *المغرب العربي تاريخه وثقافته* (المجلد ط:2). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

12. طاهر توات. (2012). ابن خميس ونثره (المجلد ط2). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
13. عبد العزيز فيلاي. (2002). تلمسان في العهد الزياني (المجلد د.ط). الجزائر: موفم للنشر والتوزيع.
14. عبد الملك مرتاض. (د.ت). الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجنور (المجلد د.ط). الجزائر: منشورات دار هومة للنشر والتوزيع.
15. لؤي حمزة عباس. (2010). بلاغة التنوير -فاعلية الإخبار في السرد العربي القديم- (المجلد ط1). لبنان: الجزائر منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت.